دفاعا عن د. زكي نجيب محمود

أ. نجية طلبة المسلمي(*)

الملخص

زكي نجيب محمود، أحد أبرز رواد التنوير والعقلانية في العالم العربي في القرن العشرين، دعا إلى نهضة ثقافية تعتمد على إدخال المنهج العلمي بديلاً عن النقل الأعمى من التراث، مع تحقيق توازن بين الأصالة والمعاصرة. رأى أن التراث يجب أن يُحترم في عناصره الأصيلة كالدين واللغة، مع الأخذ بالعلم من الوافد، لتشكيل رؤية ثقافية متجددة تُواكب العصر.

ركز على حرية الفكر والإرادة كأساس لبناء الإنسان، واعتبر أن الفكر يجب أن يكون وسيلة للتغيير نحو الأفضل. من خلال انحيازه للوضعيّة المنطقيّة، رفض الفلسفة المثالية التقليدية التي تغفل قضايا الإنسان المعاصر، وسعى إلى معالجة السلبيات لإعادة البناء.

مشروعه النهضوي كان يهدف إلى إيقاظ الأمة العربية من حالة الفقر والضعف لتصبح قوية بعلمها ووحدتها، مما جعله يُلقب بـ"ضمير عصره"، إذ عاش متفاعلاً مع قضايا أمته وداعياً إلى عقلانية تنويرية لبناء مستقبل أفضل.

الكلمات المفتاحية:

(زكي نجيب محمود، التنوير، العقلانية، المنهج العلمي، الأصالة والمعاصرة، حرية الفكر، التراث، النهضة العربية، الوضعية المنطقية، بناء الإنسان)

Abstract

Zaki Naguib Mahmoud, one of the foremost pioneers of enlightenment and rationality in the Arab world during the 20th century, called for a cultural renaissance rooted in the adoption of the scientific method as a substitute for the blind reliance on inherited traditions. He advocated for a balance

(*) عضو نقابة اتحاد كتاب مصر، عضو الجمعية الفلسفية المصرية، موجه عام الفلسفة سابقًا.

between authenticity and modernity, emphasizing the preservation of foundational elements of heritage, such as religion and language, while integrating scientific advancements from external sources to craft a renewed cultural vision attuned to contemporary realities.

He emphasized the importance of intellectual and personal freedom as cornerstones of human development, believing that thought must serve as a tool for positive societal change. Through his alignment with logical positivism, he rejected traditional idealist philosophies, which he deemed disconnected from the pressing concerns of modern humanity, and sought to address societal shortcomings through critical yet constructive analysis .

Mahmoud's reformist project aimed to awaken the Arab world from its state of poverty and fragmentation, aspiring to transform it into a strong, unified, and prosperous entity. His dedication to rational enlightenment and his engagement with the cultural and intellectual issues of his time earned him the title of "the conscience of his era." He remained deeply connected to his nation's challenges, advocating for rational thinking as a path to a better future.

Keywords: (Zaki Naguib Mahmoud, Enlightenment, Rationality, Scientific Method, Authenticity and Modernity, Arab Renaissance, Logical Positivism, Human Development)

المقدمة :

د. زكي نجيب محمود رائد التنوير والعقلانية فى الوطن العربي، وخير ما انجبته الحضارة العربية فى القرن العشرين، الناقد الثائر على الأوضاع العربية وضمير من حمل الأمانة فعاش ملتحماً بفكره مع امته، متعمقاً في دراسه تراثها داعياً لحرية الفكر وعقلانيته لأجل ان تنهض وتصير قوية بعلمها وثرائها ووحدتها، وطريقها لذلك ان يقتحم المنهج العلمي حياتها بديلاً عن منهج النقل من الكتب القديمة، وليصبح هو طريقها نحو تحقيق المعاصرة التي يجب ان تتوافق مع اصاله الثقافه ليشكلاً معاً صيغه ثقافيه جديده تفرز مواطن جديد يحتفظ باصاله جذورة وهويته واستقلاله ويساير المعاصرة في نفس الوقت. تشكلت رؤيته الفكرية عبر مسيرته الحياتيه التي أخذت ٣ مراحل:

المرحلة الأولي من ١٩٤٤ – ١٩٤٧ وامتدت لعام ١٩٦٠ وهو اعجابه بالحضارة الإنجليزية ودعوته للتمثل بها، وإنحيازه للوضعية المنطقية ومطالبته بأن تنحو الفلسفة التقليديه منحي الفلسفة التحليليه لتصبح علمية، وقد ترتب علي ذلك رفضه للميتافيزيقا وكل القضايا التأمليه والشعرية واعتبارها خرافة، ورفضه للتراث العربي شكلاً ومضموناً واعتباره غير مجدي للعصر وملئ بالخرافات بعد أن طبق عليه الوضعيه المنطقية.

المرحلة الثانية ١٩٦٠ إلي ١٩٧٠ تعد نقطة تحول حيث انكب علي دراسة التراث العربي وقسمه إلي معقول ولا معقول واكتشف أن للادراك قناتين الأولي قناة العقل وهي موجهه للعلم وجوانبه والأخري قناة الوجدان وهي موجهة نحو الدين والأدب والشعر والفن، وهما عند العربي متوازيتان فاوحي إليه ذلك بالبحث عن صيغة ثقافية تلائم العربي يجمع فيها بين الأصاله والمعاصرة في ثقافة واحدة بحيث لا ينفصل عن ماضيه ولا يفلت منه حاضره.

المرحلة الثالثة وبدأت من ١٩٧٠ وحتي نهاية العمر حيث يبحث عن صيغه تلائم بين القديم الأصيل والحديث الوافد ليس بالنقل ولكن بالموائمه أي بالإنتقاء من الأصيل الذي يناسب الحاضر ويحفظ للعربي هويته وكذلك الإنتقاء من المعاصر الوافد الذي لا يقضي علي الأصيل بل يضيف إليه كي يتجاورا غير متصارعين في ثقافه واحدة هي ثقافه العربي .. وهو ما نسميه الموائمه بين القديم والجديد أو بين الثابت والمتغير أو بين القديم الوافد وهذا الإنتقاء تم باستخدام المنهج البراجماني الذي يبقي علي المفيد ويستبعد الغير مفيد من كليهما " الأصيل والوافد ".

فمن التراث نبقي علي ما هو أصيل يحافظ علي هويتنا كالدين واللغة والتاريخ ...الخ ومن الوافد نأخذ بالعلم وتطبيقاته فنجمع بذلك بين الأصاله والمعاصرة .. وبعد أن كان يرفض التراث شكلاً وموضوعاً تغيرت نظرته وصار يقبله شكلاً ويرفضه موضوعاً أي يحتفظ بالرؤية العقلانية شكلاً لكن تملأ أوعية اللغة بموضوعات عصرنا وبذلك يتم الجمع بين الأصالة والمعاصرة بالموائمه.

نجية المسلمي

دفاعاً عن د . ذكي نجيب محمود

المفكر هو نتاج تلاحم فكره وما يسود مجتمعه من قضايا فكرية وثقافيه، هو ضمير أمته، صاحب الفكر المستنير الذي يرشد ويوجه ادراكاً منه بأن الفكر للتغيير إلى الأفضل، ويعتبر د. ذكي نجيب محمود من أهم المجددين فى الفكر العربي المعاصر، فهو صاحب مشروع نهضوى أحدث به ثورة فكرية بالثقافة العربية في النصف الأول من القرن العشرين بدعوته لأن يقتحم المنهج العلمي والروح العلمية ثقافتنا العربية، وانه بمشروعه هذا وانحيازه للوضعيه المنطقيه بالذات يكون قد وقف موقفاً مناهضاً للفلسفة المثالية " التقليدية " بسعيها نحو تقديم تحليلات مجرده نظريه لا تتفق ومشكلات الإنسان المعاصرة، فقد كان ناقداً للسلبيات لأجل إعاده البناء، معتداً بدور العقل، مقدراً لقيمة الحرية فإستحق ان يوصف بأنه ضمير عصره، بهدفه النبيل أن تنهض الأمه العربية من غيبوبتها .. غيبويه فقرها وجهلها وضعفها وتفككها لتصبح أمه قوية بعلمها وثراءها ووحدتها، ولذلك عاش ملتحماً بفكره مع أمته، متفاعلاً مع ثقافتها، متعمقاً في دراسه تراثها، داعياً لحرية الفكر وعقلانيته وكذلك لحريه الارادة باعتبارهما اساس بناء الإنسان.

بصفه عامه يجمع النقاد أن د. ذكي نجيب محمود يعد أحد رواد التنوير في الفكر العربي المعاصر، وعميد العقلانية التي عبر عنها بالجمع بين التنظير العقلى والتطبيق النقدى، وباسلوب شيق جذاب يجمع بين الفلسفة والأدب حتى لقب بأنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، الرافض لكل لا معقول، الهادم لسقف الأوهام، الناقد الثائر على اوضاع العالم العربي في حينة، الداعي للعقلانية والداعم للايجابيات، وللقارئ أن يعلم ان مشروعه " الدعوة الى فلسفة علمية " نبع من ظروف عصره حيث كان سؤال العصر مستمراً لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم ؟

وقد تبلور مشروعه الفكرى خلال مسيرة حياته من البدايه للنهاية، فهو صاحب تجربه حيه يصعب فيها الفصل بين رؤيته الفكرية وسيرته الذاتيه والتي اوجزها في ثلاث مراحل وتعد في ذات الوقت نقاط تحول فى سيرته الفكرية، وإذا كان البعض قد رأى فى مراحل حياته توجهات فكرية مختلفة الاَّ أن الوضعية المنطقيه كاتجاه فكري يتبع الفلسفة التحليلية ظلت تلازمه طوال حياته كما سنرى فيما بعد.

وقد تمت رؤيته الفكريه من خلال مسيرة حياته التى أتناولها من خلال مراحل ثلاث هي :

المرحلـه الأولـى : كانت منذ سفره الى لندن ١٩٤٤ – ١٩٤٧ وامتدادها حتى عام ١٩٦٠ وانبهاره بالثقافة والتقدم الأوروبي.

المرحلـة الثانيـة : هى مرحلة النضج والاهتمام بالتراث والبحث عن الجذور وهي بدأت بعام ١٩٦٠ والتعرف على سلبيات التراث وايجابياته وبين ما هو أصيل وما هو وافد، ومحاوله الجمع بينهما في صيغه ثقافية واحدة.

اما المرحله الثالثه : فهي الموائمه بين الموروث والمنقول، بين الأصالة والمعاصرة، بين القديم والجديد ليشكلاً معاً صيغة ثقافية عربية إسلامية تتفق وعقل العربي فيحافظ على الموروث الأصيل في تراثه من جانب ويساير المعاصرة بالعلم من الغرب من جانب آخر فيجمع بذلك بين الأصالة والمعاصرة، بالموائمه لكل منهما بطريقة برجمانيه بحته.

المرحلـة الأولـى : وهي تمتد من ١٩٤٤ – ١٩٤٧ وما بعدها حتى عام ١٩٦٠ حيث سفره إلى لندن للحصول على الدكتوراه وفيها حدث انبهار بأمرين :

الأمر الأول:

اسلوب حياة المجتمع الإنجليزي وثقافتة وعلمه وفنونه، ومدى الحرية الممنوحه للمواطن الأوروبي وما يتمتع به من كرامة انسانية وقام بمقارنه ما رآه بالمجتمعات العربية فوجد البون شاسعاً، وبدأت في نفس الوقت تتبلور في ذهنه فكرة التقدم في صورة تساءل ... ما السر في هذا التقدم المذهل الذي يعم الثقافة الإنجليزيه؟ وهل يمكن ان تتقدم الشعوب العربية مثلهم ؟ .. لقد ادرك د. ذكي نجيب محمود ان سبب تقدم الغرب هو خروجه الى الطبيعه واستخدامه المنهج التجريبي الذي اسسه بيكون بدايه عصر النهضه واتخذه بديلاً للمنهج القياسي القديم، ونحن في الشرق ما زلنا عندما تواجهنا مشكله نعتمد على النقل من الكتب القديمة " الكتب الصفراء " فتجمدنا عند حدود هذه الكتب وزمانها فتخلفنا عن الآخرين، فكان غياب المنهج العلمي في ثقافتنا هو سبب نكبتنا، وسبب افتقادنا لأنجح وسيله للتعامل مع الواقع والسيطرة عليه كما فعلت اوروبا.

وهذا سبب حرصه على ان يقتحم المنهج العلمي حياتنا ليرتبط الفكر بالعمل ويتحقق الإنجاز الحقيقي.

ولذلك فهو يقول في كتابه قصة عقل صـ ٣٦ ، صـ ٣٧ (لم البث طويلاً حتى أذهلتني فروق شاسعه بين ما رأيته، وما عهدته في قومي فالفرق شاسع كما رأيته يومئذ بين فكرتهم عن المساواة وفكرتنا عنها، بين فكرتهم عن حريه الإنسان وبين فكرتنا عنها، بين فكرتهم عن العلم وفكرتنا عنه، فماذا اصنع سوى أن أكتب مقالات اسجل فيها انطباعاتي تلك وأبعث بها لتنشر في مجله الثقافه، وهي مقالات من نوع فريد فيها رمز، وفيها سخرية، وفيها أدب المقاله على نحو لم يألفه كثير من كتابنا، فضلاً عن القارئين، ثم فيها فوق الرمز الساخر والشكل الأدبي شواظ من نار تتأجج في الفاظها).

كان د. ذكي ناقداً لنمط الحياة والتفكير عند العرب ويريد لهم أن يتقدموا مثل المجتمع الأوروبي الاَّ أن النقاد ثاروا عليه عندما اعلن اعجابه بالثقافة الإنجليزية واعتبروه داعياً للقيم المادية الغربية ومنحازاً للنفعيه في حين أن ما يدعو إليه لم يكن جديداً عن السابقون عليه امثال رفاعه الطهطاوي والشيخ محمد عبده وغيرهما اللذين رئوا عند الإنجليز اسلاماً بلا مسلمين وفي مصر مسلمين بلا اسلام ... بل اعتبروا أن استخدامه لغة السخريه والرمز احياناً في التعبير عما يصفه في مقالاته نوع من التنكر لوطنه وأهله في حين أنه كان يحمل لوطنه اهدافاً نبيلة ومعلنة هي أن تنهض هذه الأمة من غفوتها لتصبح أمه قوية بعلمها وثرائها ووحدتها .. أمة تصون كرامتها وتحافظ علي حقوق ابناءها.

وليس في ذلك تفسير سوي أنه أراد تغيير سلم القيم لتصير للعربي كرامته بلا تعقيد أو تأويل في الفهم ونثري بالعلوم والفنون والاحساس بالحياة مثلهم.

الأمر الثاني:

أثناء دراسته بلندن في تلك الفترة احاط علماً بفلسفات العصر وتوجهاتها فوجدها تتمحور جميعها حول الإنسان وتقدمه وسعادته وتتمثل في الفسلفة التحليلية في شمال غرب أوروبا والفلسفة البراجمانية في أمريكا وفي غرب أوروبا توجد الفسلفة الوجوديه وفي شرق أوروبا توجد الفلسفة المادية الجدليه .. وكلها فلسفات تدور حول الذات

الإنسانية ولا علاقة لها بالسماء أو الغيبيات فإنحاز للفسلفة التحليلية وبالذات تيار الوضعية المنطقية أو كما يسميها التجريبية العلمية، والفلسفة التحليلية هذه احدثت ثورة فكرية في أوروبا في القرن العشرين وهي تجعل مهمتها الأساسية تحليل اللغة ونقدها من أجل تطهيرها من العناصر التي تسئ إلي الفكر وتعطله سواء كانت الفاظ أو جمل لا تدل علي شيء في الواقع، والوضعية المنطقية تتبع الفسفة التحليلية وتمجد العلم، وتثق في المشاهدة كوسيلة للمعرفة العلمية، وأيضاً تضع مسأله اللغة في أولي اهتماماتها نحو السعي إلي تحقيق العلم الموحد .. فهي تمتلك حساً نقدياً عالياً يتجه نحو الألفاظ أو العبارات التي نستخدمها للتعبير عن افكارنا بإعتبارها تعبر عن وجود حقيقي لها في الواقع، أما معيار التحقق من صحتها علي المستوي الابستمولوجي فهو إخضاعها للتجربة أو الملاحظة المباشرة.

ونتيجه لذلك أن كل عبارة لا تخضع للتحقق التجريبي هي جوفاء، أي خالية من المعني وبالتالي فهي ليست علميه .. وبناء عليه لا يجب التحدث عن هذا العالم إلاَّ بالقضايا التي تخضع في مصداقيتها للتجريب العلمي وهذا مدعاه لرفض القضايا التأمليه، الصورية، الخيالية، الغيبيات، وكل الميتافيزيقا.

ولأن عصرنا عصر العلم فطالب أن يقتحم المنهج العلمي حياتنا، وطالب أيضاً بتغيير وظيفة الفلسفة وفقاً لظروف العصر فلا يجب أن تحصر مهمتها في البحث في الموجودات والعلل والغايات الأولي، بل عليها أن تحذو حذو الفلسفة التحليلية نحو ضبط الكلام الذي يُقال عن الكون والتحقق من مدي مطابقته للواقع لتصبح فلسفة علمية يتطابق فيها الفكر مع العمل والواقع بدلاً من الطابع الشعري الوجداني العاطفي البعيد عن العقلانية والذي تتسم به ثقافتنا.

وعندما عاد إلي مصر عام ١٩٤٧م بدأ يدعو إلي أمران شديدي الأهمية من وجهة نظره هما :

- الدعوة إلي الانفتاح علي الثقافة الغربية وضرورة التمثل بها.
- الدعوة إلي الأخذ بالوضعية المنطقية كمنهج في التفكير والعمل، وفي كل مؤلفاته كان يدعو للعلم من خلال عبارته المشهورة {أنا مؤمن بالعلم كافر بذلك اللغو الذى

لا يجدي علي اصحابه والناس شيئاً وعندي أن الأمة تأخذ بنصيب من المدنية يكثر أو يقل بمقدار ما تأخذ من العلم ومنهجة} ومن تقديره للعلم أنه ربط بين الحرية والمعرفة فيقول {أنت حر بقدر معرفتك لأنك عندما تعرف تسيطر}. وقد قام بترجمة كتاب "برتراندرسل" تاريخ الحضارة الغربية، وبعض اجزاء من قصة الحضارة (ول ديورانت) والفلسفة بنظرة علمية (برتراندرسل) وغيرهم. وكانت له عدة مؤلفات لا يمكن تجاهلها مثل كتابه المنطق الوضعي " جزءان " الأول في المنطق الصوري والثاني في فلسفة العلم، وكتاب خرافة الميتافيزيقا، وكتاب نحو فلسفة علمية ١٩٦٠، كما كانت له كتابات أدبية "جنه العبيط" ١٩٤٧م، "شروق من الغرب" ١٩٥٠، الكوميديا الأرضية ١٩٥٣م ... وغيرهم ... وقد ناله ما ناله من الهجوم وأهمها اتهامه بالالحاد لأنه لا يؤمن بالقضايا الغيبية وذلك لإنهم لم يتفهموا ما يقصده بأن منهج الوضعية المنطقية هو منهج للتفكير العلمي الذي هو قاصر علي حدود العالم المحسوس والذي يستحيل معه إقامه برهان تجريبي علي ما بعد الطبيعة، وكان هذا الإتهام سبباً في تغيير عنوان الكتاب إلي "موقف من الميتافيزيقا"، وكان الموقف من التراث في هذه الفترة الزمنية موقف الرافض له كليه حيث وجده غير مجدي بالقياس إلي عصره لأنه يتناول موضوعات ومشكلات قديمة تلائم عصرها، وكلها دينية. أما مشكلات العصر الحالي فهي اجتماعية ثقافية، تتناول علاقة الإنسان بالإنسان، فأناس الماضي – أيضاً – بعيدين عن العقلانية التي تربط الأسباب بمسبباتها لأنهم يؤمنون بالكرامات والسحر والخرافات واهتمامهم بالشكل يفوق المظهر، كما ان لغتهم العربية التي هي أداة الثقافة تحوي في الغالب الفاظ جوفاء ليس لها دلالة واقعية لأنهم يهتمون بالصنعة اللغوية وما تحدثه من أثر جميل في نفس المتلقي دون الاهتمام بأن يكون لكلامهم مدلول حقيقي في الواقع وهو ما يفقد الكلام قيمته، ويصنع ازدواجيه بين الفكر والعمل، ولذلك كان سعيه دائماً أن يكون الأخذ بالمنهج العلمي هو لب رسالته الحضارية، فاعتبره النقاد مهاجماً للتراث العربي ويقف منه موقف الرافض تماماً مثل ديفيد هيوم الذي نبذ التراث وطالب بأن يلقي في النار.

لكن من الأهمية معرفة أنه طبق منهج الوضعية المنطقية علي محتويات التراث فكان الرفض التام من جانبه للتراث شكلاً وموضوعاً.

وهو يقول عن التراث في كتابة قصة عقل صـ ٢١٧ { لقد قرأت ما قرأت من التراث ليكون حكمي عليه بمعايير عصرنا نحن من حيث انتفاع الناس به أو عدم انتفاعهم لأنه يريد أن يكون الحبل موصولا بيننا واسلافنا }.

وفي كتاب تجديد الفكر العربي صـ ١١٠ يقول { التراث كله بالنسبه لعصرنا قد فقد قيمته لأنه يدور أساساً علي محور العلاقة بين الإنسان والله، في حين أن ما نلتمسه اليوم في لهفه مؤرقه هو محور تدور عليه العلاقة بين الإنسان والإنسان }.

موقفه من التراث بالتفصيل:

المرحلة الأولي : مرحلة رفض التراث (سبق الحديث عنها).

المرحلة الثانية : بدأت عقب سفره لدولة الكويت عقب نكسه سنه ١٩٦٧ حيث انكب علي قراءة التراث العربي الإسلامي فوجد حضارة عريقة أقامها العرب في فترة زمنية سابقة، وأن سبب تخلفهم الآن أنه حدثت قطيعه حضارية مع العلم مفتاح الحضارة فأصبح البون شاسعاً بين الشرق المتخلف والغرب المتقدم، واكتفي الشرق بإن يمد يده للغرب يأخذ منه ما يريده .. والغرب يمنح أو لا يمنح وفقاً لشروطه هو، لكنه اكتشف في نفس الوقت أنه ملئ بكل ما هو أصيل لكنه بعيد عن المنهجية العلمية، فأخضعه للدراسة العلمية ليخلصه من الخرافات، وأيضاً لكي يحدد معالمة الأصيلة، وهو ما ساعده علي إدراك أن للعاطفة والوجدان مكانه عالية عند العربي تمثلت في الشعر والأدب، وعلي نحو متوازن مع العقل، فأعلن أن للإدراك قناتين إحداهما قناة العقل وتوجه نحو العلم وجوانبه المختلفة، والأخري قناة الوجدان وتوجه نحو الشعر والأدب والدين والتأملات والفن .. الخ، وقد أوحي إليه بهذا التوازن هي رؤيته لانقسام العالم إلي جانبين من حيث النظرة إلي الوجود، الطرف الأول هو الشرق الأقصي (الهند والصين) وما جاورهما، والذي يغلب عليه الطابع الديني أو الروحي أو الحدسي، والطرف الثاني هو المتمثل في أوروبا وأمريكا والذي يغلب عليه الطابع العقلاني المادي، وهذان الاتجاهان يلتقيا في الوسط أي (الشرق الأوسط) طوال عصوره

التاريخية، فقد لاحظ د. زكي نجيب أن حضارته العربية الإسلامية تجاور فيها العلم مع الدين، وأهل هذه المنطقة ينظرون إلي الوجود بالنظرتين معاً {نظرة الفنان} وهي نظرة روحانية، {ونظرة العقل والمنطق الذي يحلل ويعلل ويستنتج} وهي النظرة التي تميز بها الغرب وحده، ومن هنا كانت نقطة الإنطلاق نحو مشروعه الجمع بين الأصالة والمعاصرة.

فنأخذ بين التراث ما نحافظ به علي هويتنا وذاتنا واستقلالنا، {الدين، اللغة، القيم الخلقيه والروحية، التاريخ} ونأخذ من الغرب العلم الذي به نساير المعاصرة .. وبذلك يتحقق للعربي الجمع بين الأصالة والمعاصرة.

ولذلك يقول : أنه قرأ التراث قراءة مثقف يعيش في القرن العشرين ويريد أن يري الحبل موصولاً بينه واسلافه، ثم يقول {قل ما شئت عما في تراثنا العربي من قوة وغزارة وإبداع فذلك كله صحيح لكننا نغمض أعيننا عن الحق إذا نحن أغمضناها عن عوامل أخري تعمل فينا كأبشع ما يستطيع فعله كل ما في الدنيا من أغلال وأصفاد}، وفي موضع آخر يقول {إنه لابناء إلاَّ بعد أن نزيل الأنقاض، ونمهد الأرض، ونحفر للأساس القوي المتين} قصة عقل صـ ٢١٦، ففي التراث عناصر إيجابيه وأخري سلبية تعوق النهضة كاستبداد الحاكم السياسي وقبول الرعية للاستبداد، وإيمان العامة بالكرامات والقدرة علي تعطيل القوانين الطبيعية، وغياب النقد عن حياتنا الثقافية نتيجة تقديس التراث ونهتم بالحس الجمالي للغة أكثر من مدلولها وخلافه.

هكذا مضي يملأ كتبه بفكره وتحليله لصيغة الجمع بين الأصالة والمعاصرة بدءاً من كتابه " تجديد الفكر العربي ".

علماً بإنه تراجع عن استخدام منهج الوضعيه المنطقية في بحثه في التراث واستبدله بالمنهج البراجماني ليحدد من خلاله ما هو مفيد فتبقي عليه، وما هو غير نافع لحياتنا المعاصرة فنتخلص منه، ولذلك كان يسعي إلي إبقاء كل ما هو أصيل في ثقافته كي لا تفلت منه هويته، ولا يتخلي في نفس الوقت عن الفكر الوافد كي لا يغترب عن عصره، وكأن قطعة من الماضي تجري في الحاضر لأننا في الأصل نعيش ثقافتين مختلفتين.

وقد إعتبر أن قضايا الدين لها المرتبة الأولي التي تحتلها في تفكير العربي فأقام تصوره للدين علي نظرة ثنائية تشطر العالم شطرين إحداهما مادي والثاني روحي وهي موجودة في غالبية الناس، الجانب الروحي يمثل الحرية والإرادة والقدرة علي الخلق والإبتكار وتمثل القيم وهذا ما جعله يدرك أن المنهج التجريبي أصبح غير كاف لمعرفة عالم الطبيعة كله بقوانينه، وإننا لدينا مصادر خاصة لمعرفة عالم الروحانيات والغيب والقيم كالبصيرة والوحي.

ولذلك يقول مازال يتحكم في حضارتنا طابعها الشعري الوجداني العاطفي لصبح قريب إلي اللاعقلانية حتي العالِم الذي يقف في المعمل متشحاً بالعقل، عندما يخرج من المعمل يركن العقل جانباً لأنه تعود علي اللاعقلانية في ممارسته معيشته .. فقضية المنهج العلمي وفلسفة د. زكي لها خطورتها وأهميتها لأنه يتخذها منطلقاً اساسياً لرسالته الحضارية التي يدعو لها وهي أن يقتحم المنهج العلمي حياتنا وثقافتنا لأن افتقاده سر تخلفنا، وله ثلاث كتب معبره عن رأيه وحكمه في التراث وهي تجديد الفكر العربي "، المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، ثقافتنا في مواجهه العصر وغيرهم.

إذن فالاشكاليه الحضارية لفلسفة د. زكي نجيب هي قضية الأصالة والمعاصرة التي تضعنا في موضع صراع مع الحداثه طوال القرنين الماضيين والتي صاغها علي النحو التالي :

كيف السبيل إلي ثقافة نحيا بها تجتمع في إطارها ثقافتنا الموروثه مع ثقافة العصر الذي نعيشه حالياً شريطه ألاَّ يكونا متنافرين ... ؟

وكان هذا التساءل نقطة الإنطلاق للمرحلة الثالثة التي تبدأ من ١٩٩٣ إلي نهاية حياته.

المرحلة الثالثة :

هي البحث عن عناصر التقاء الموروث بالوافد – فوجد أن العلم عامل مشترك بين كل الدول ويمثل المعاصرة ويمكننا أن نصبه في وعائين هما وعاء اللغة العربية

بإعتبارها أداة تواصل قوانين واعراف شريطه عدم تعارضها مع علوم العصر علي اختتلافها وإذا ما حدث تعارض وجب الإبقاء علي علوم العصر وحذف ما تعارض معها لكي تحدث المعاصرة بمعناها الصحيح.

وقد استطاع حل مشكلة الأصالة والمعاصرة بوضع الصيغة التي تجمع بين العقل والوجدان فنأخذ من الغرب وحضارته العقلانية منهج العلم ونسقه وتقنياته، ونبقي من تراثنا علي ما يحفظ لنا هويتنا ووجودنا كالدين واللغة والفن والاخلاق وكان متمسكاً بموقفة هذا حتي أنه طالب بتربية الأجيال القادمة علي ثنائية العقل والوجدان.

والآن تحدد لنا ماذا يريد د. زكي نجيب محمود بقضية الأصالة والمعاصرة، فهو يريد ثقافة عصرية تحترم العقل، وتتسلح بمنهج العلم، وتضع فردية الإنسان وكرامته وحريته في منزله المبادئ والمسلمات، وأن يعيش العربي حياته في خطين يشبع بهما جانبي الحياة الإنسانية الصحيحة، يقبل علي التفكير العلمي ومنهجه وثمراته وفي نفس الوقت لا يغفل ذاته وهويته العربية المتدينة، وإيمانه بدينه ووطنه وجوانب ذاتيته التي تتمثل في اللغة العربية وصور البطولات العربية، وسيرة تاريخه لأن كلاهما { العقل والوجدان } قد يبدوان منفصلان بحكم اختلاف خصائص دراساتهما .. إلاَّ انها يكملان بعضهما البعض في تشكيل الشخصية العربية، فالعقل يجعل الهوية تعيش عصرها ويأخذها للأمام نحو التقدم أما الوجدان فهو يحافظ علي جوهر هذه الهوية ودوامها. ليحقق من خلال ثنائية الأصالة والمعاصرة التوازن بين كون الإنسان عربياً بتراثه، ومعاصراً بإنتماءه إلي علوم عصره وثقافته فيتحقق تجديد الإنسان العربي فكراً وسلوكاً وهكذا يتم الجمع بين الأصيل والمعاصر بطريقة عملية وتطبيقية في حياتنا تتم بالإنتقاء وليس بالنقل وتغيرت نظرته إلي التراث كلية فبعد أن كان يرفضه شكلاً وموضوعاً في المرحلة الأولي نجده في المرحلة الثانية " مرحلة التعمق في البحث في التراث " يري أنه يمكن الفصل بين الشكل والمضمون، فنأخذ من التراث الشكل (أي الرؤية العقلية) ونملأه بمضمون عصرنا نحن، كذلك تغيرت نظرتة للحضارة الغربية أيضاً، فليس كل

ما يأتي منها مفيد .. وهذا التحول في رؤيته يدل علي أنه رجلاً واقعياً عقلانياً موضوعياً وليس دوجماطيقيا.

هذا هو مفكرنا العملاق الذي دخل تاريخنا الفكري والثقافي المعاصر من أوسع الأبواب، وترك لنا ثروة فكرية هائلة فلسفية وأدبية غايه في العمق لتصبح كنزاً فكرياً نستلم منه أصالة التراث وعلم العصر وحضارته.

وليت العمر قد امتد به ليشهد معنا – ما نراه الآن – من تقدم علمي مذهل تمثلت أحد جوابنه في تطور أجهزة الحرب لتصبح حرباً سيبرانية، وحرباً الكتروسياسية تراجعت أمامها كل أصناف الحروب مثلما حدث في تفجير اسرائيل لتليفونات (بيجر) عن بعد التي يستخدمها حزب الله اللبناني، ويشهد تفاقم الصراع النووي الناتج عن صراع القوي، ويشهد انهياراً اخلاقياً لم يشهده العالم من قبل بدأ في التعامل مع القضية الفلسطنية وتمثل في تجاهل القانون الدولي القائم علي المبادئ الأخلاقية والإنسانية في معاملة الدول لبعضها البعض مما أدي إلي إفتقاد الأمن والعدل والسلام علي مستوي العالم.

أن الأمة العربية الآن تعاني الإنكسار والهزيمة النفسية وهو نتيجة حتميه لما تعانية من تخلف وتفكك إمتد بها لقرون طولة – وكذلك تجاهلها لقيمة الإبداع العلمي فاصبحت دول مستهلكة لما ينتجة العرب، ومقلدة لما يبدعه الغرب و ٨٠% من احتياجاتها تأخذها من الغرب حتي اصبحت جزءاً من مشاريع الغرب وفقاً لحديثه (صلي) { تتكالب عليكم الأمم كما تتكالب الأكلة علي قصعتها ... الخ }، .. فلا يليق بهذه الأمة التي تسيدت العالم في مرحلة زمنية معينة بالحضارة العربية الإسلامية أن تكون مقلدة وتابعة بالقروض والمنح المشروطة للغرب مما يؤثر علي استقلالها وقرارها السياسي .. عليها إعادة بناء ذاتها من جديد وفقاً لظروف العصر وتقدم العلم، وتجديد هويتها بالانفتاح علي الثقافات المختلفة حتي لا تصبح ريشه في مهب الريح كوصف غاندي فيلسوف الهند العظيم : { يجب أن افتح نوافذ بيتي لكل الوان الثقافات، لأنني أرفض أن أكون ريشه في مهب رياح أحد، وأرفض أن أعيش داخل منازل الآخرين سواء كدخيل أو كمتسول أو كعبد }.

رحم الله د. زكي نجيب محمود الذي ابرز أهمية وقيمة العلم والثقافة العلمية لحياتنا والذي مات في ٨ سبتمبر ١٩٩٣ بعد أن سمع أنين حشرجة صوته وروحه تتردد بين جوانحه استعداداً لإستقبال الموت تماماً كتغريدة البجعة التي وصفها في كتابه حصاد السنين.

الخاتمة

د. زكي نجيب محمود من كبار التنويريين في ثقافتنا المعاصرة، سار نشاطه الفكري في خطين متوازيين، التدريس ومشاركته في نفس الوقت الحياة الثقافية في مصر والعالم العربي، تبلور اتجاهه الفكري عقب سفره إلي لندن عام ١٩٤٤ وتأثره بالثقافة الإنجليزية، وإعجابه الشديد بتيار الوضعية المنطقية والذي دعي علي اثره إلي أن تكون الفسلفة علمية وأن تاخذ بمنهج الفلسفة التحليلية في شمال أوروبا وبدلاً من أن تجعل الكون وغاياته وعلله الأولي مبحث اهتمامها .. عليها أن تهتم بالكلام الذي يقال عن الكون والتأكد من مطابقته للواقع الخارجي كي يتطابق الفكر مع الواقع.

التحم فكره بهموم وطنه المصري والعربي فصار يبحث له عن مخرج من ازمته الحضارية (التخلف) ويبحث له عن صيغة ثقافية تناسب متغيرات العصر(عصر العلم والتكنولوجيا) بعد أن وجد البون شاسعاً بين الشرق والغرب .. ولذا دعا إلى الأخذ بالمنهج العلمي بديلاً عن النقل من الكتب القديمة، واتجه بكل فكره نحو التراث ناقداً ومحللاً لمعرفه سبب التخلف فوجده مختلط بالخرافات .. في البدايه رفضه شكلاً وموضوعاً جعله موضوع همه فأكتشف أن به كنوز وأن تراث أي دولة هو مخزونها الثقافي الذي يميزها ويحدد هويتها، فأعاد تعمقه في البحث في التراث وقسمه إلى معقول ولا معقول .. لنحتفظ منه بما يتميز برؤيه عقلانية وبما هو مفيد في مسايرة العصر، أما الغير مفيد أو ذو الرؤيه اللاعقلانية فيجب تركه، واكتشف ايضاً أن للشعر والأدب مكانة عاليه عند العربي فأعلن أن للإدراك قناتين يعملان في توازٍ الأولى قناة العقل وتوجه نحو العلم والأخرى قناة الوجدان وتوجه نحو الشعر والأدب والدين وهما يجتمعان معاً في شخصيه العربي دون تناقض بينهما .. فأوحى له هذا التوازن بتقديم صيغه ثقافية مناسبة تجمع بين الأصالة والمعاصرة، فمن التراث نبقي على كل ما هو

أصيل يحافظ على هويتنا واستمرارنا وبقاءنا كاللغة والدين والتاريخ ... الخ ومن الغرب نأخذ المعاصرة أي العلم والتكنولوجيا وبذلك يساير العربي عصره فيتقدم وهو محتفظ بشخصيته وهويته ولكي يحقق د. زكي نجيب محمود التجاور المتوازي بين الأصالة والمعاصرة أعلن أنه يجب أن نقوم بعملية إنتقاء لكل منهما بحيث ننتقي من التراث ما يساير المعاصرة، وننتقي من المعاصرة ما لا يتعارض مع أصالتنا .. وبذلك يسيران في ثقافتنا جنباً جنب دون تعارض أو تناقض .. ولتحقيق ذلك قام بإستخدام المنهج البراجماتي لتحقيق عملية الإنتقاء بعد أن أدرك أن الوضعية المنطقية لن تحقق له ذلك.

هذا هو د. زكي نجيب محمود رائد التنوير في العالم العربي، والذي تقدم بمشروع حياته كلها { الموائمة بين الأصالة والمعاصرة } لأجل إخراج العربي من بؤرة التخلف ويصبح له سيادته وموقعه علي خريطة العالم المتقدم .. تحضرني اهدافه النبيلة حين اتذكر مقوله المفكر الجزائري مولود بلقاسم { التقدم بالعلم يا سادة وليس بالترنح والوسادة }. وحين اتذكر مقوله المفكر الجزائري أيضاً مالك بن نبي حين قال { ليست المشكلة في الاستعمار ولكن في القابلية للاستعمار }.

ويجب أن ندرك أن ما تعانيه الأمة العربية الآن من تمزق وردة حضارية هو نتيجة حتميه لعدم قدرتها علي ملاحقه المعاصرة بكل احوالها وعجزها عن تحويل التنوع الطائفي والمذهبي إلي عنصر بناء وثراء بدلاً من أن يكون عنصر هدم وصراعات وينطبق عليها مقوله د. حسن حنفي { نحن أمة لا هي استطاعت أن تحافظ علي تراثها ولا استطاعت أن تعيش عصرها بكل ما يحمله من ثراء فكري وحضاري وتقني وأن المعركة الحقيقية هي أصلاً معركة فكرية حضارية هدفها قتل الروح وإماتتها إلي الآن }. فعلي العرب اذن أن يستفيقوا لأنفسهم.

المراجـــــــــــع

- قصة عقل دار الشروق ١٩٨٣ د. زكي نجيب محمود
- قصة نفس دار الشروق ١٩٨٨ د. زكي نجيب محمود
- عن الحرية اتحدث دار الشروق ١٩٨٦ د. زكي نجيب محمود
- حصاد السنين دار الشروق ١٩٩١ د. زكي نجيب محمود
- من زاوية فلسفية دار الشروق ١٩٧٩ د. زكي نجيب محمود
- عربي من ثقافتين دار الشروق ١٩٩٠ د. زكي نجيب محمود
- تجديد الفكر العربي دار الشروق ١٩٧١ د. زكي نجيب محمود
- د. زكي نجيب محمود المجلس الأعلي للثقافة ١٩٩٨ تقديم د. حسن حنفي
- انتكاسة عقل نجية المسلمي دار عين للنشر والتوزيع ٢٠١٠
- مجلــه الجمعيــه للفلســفية المصرية السيرة الذاتيه المشاريع الفكريه العربيه المعاصره ٢٠١٤
- رواد التجديـد فــي الفلسـفة المصــرية المعاصــرة فــي القرن العشرين د. مصطفى النشار ٢٠١٧ دار نيوبوك للنشر
- العقل والتنـوير فـي الفكـر العربي المعاصر د. عاطف العراقي دار قباء ١٩٩٨